الفضيلة والضرورة عند ماكيافيللي

***

أ. الصادق بوبقرة*

مقدمة**

عاصر ماكيافيللي (1469-1527) فترة من أسوأ الفترات التي مرّت بها إيطاليا، حيث عمّ فيها الفساد علي جميع المستويات سياسيـًا، اجتماعيـًا اقتصاديًا، إلى جانب انقسامها إلي عدّة دويلات صغيرة متصارعة ومتناحرة فيما بينها، الأمر الذي أدى إلى إضعافها مما جعلها محل أطماع من الدول المجاورة التي تفوقها قوة وتنظيمًا.

هذا الواقع المزري الذي آلت إليه ايطاليا، كان له الوقع الكبير في نفسية ماكيافيللي مما دفعه إلي تجنيد قلمه في سبيل محاولته إيجاد مخرج يعيد لوطنه ايطاليا مجدها وعظمتها المفقودة التي ورثتها عن الإمبراطورية الرومانية قديمًا، ولأجل ذلك، عمد إلى تحليل الواقع السياسي والاجتماعي الذي عايشه تحليلاً معمقًا محاولاً بذلك الكشف عن الأسباب الحقيقية التي أحالت ايطاليا إلى ما هي عليه من ضعف وهوان.من خلال تحليله، خَلُص إلى نتيجة أساسية وجد فيها أن السبب الرئيس الذي وقف أمام ايطاليا حائلاً دون أن تكون مثل جاراتها من الدول الأخرى، مثل اسبانيا وفرنسا هو غياب عامل الفضيلة عن أفراد الشعب الايطالي حكامًا ومحكومين. لذلك، نجده في مؤلفاته يقدم الحجة تلوى الحجة ويدعمها بالأمثلة الكثيرة المستقاة من التاريخ القديم والمعاصر ليثبت أنه دون عامل الفضيلة، فإن ما تتعرض له الدول هو الانهيار والضياع.

وعليه، فإن مهمتنا الأساسية، وفق ما سبق، تتمثل أساسًا في العمل على تحديد مفهوم الفضيلة كما أورده ماكيافيللي، وتسليط الضوء على المتطلبات التي تستوجبها وهذا من خلال منطق الضرورة الذي تحدث عنه ماكيافيللي.

1- مفهوم الفضيلة

تكتسي الفضيلة مكانة مهمّة عند ماكيافيللي، ويتضح ذلك من خلال تكرار ورودها في مؤلفاته خاصة منها كتاب "الأمير" و"المطارحات" ، غير أنّ ما ينبغي الإشارة إليه أنّ ماكيافيللي لم يكن الوحيد الذي تطرق إلى مشكلة الفضيلة. فلقد عالجها الكثير من الفلاسفة من خلال التطرق إلي مفهومها،

---

* أستاذ بجامعة الجزائر.

** - Abstract: Machiavelli, witnessed a certain phase which is considered as the worset phases that Italy had ever lived in, since corruption had widely spread at all levels. This corruption according to MICHAIVALL back to that selfishness that overwhelmed on people's behaviors wether they were governors or governed people, which pushed him to make sure through a deep analysis to real life that he lived in. In addition to his study to the ancient history through TITUS LIVIUS' works as no way to exit from this tribulation without the virtue of serving the public interest which glorifies the nation and put it above any consideration.

وطبيعتها، وخصائصها، والغاية منها. فها هو أفلاطون (347.427 ق.م) يقسم النفس الإنسانية إلى ثلاثة أقسام: النفس الشهوانية، والنفس الغضبية، والنفس العاقلة. فإذا كانت فضيلة الأولى هي العفة، فإن فضيلة الثانية هي الشجاعة، أمّا الثالثة ففضيلتها الحكمة، وبحسب النظرية الأخلاقية عند أفلاطون لا تتحقق الفضيلة إلاّ بخضوع القوة الشهوانية والقوة الغضبية إلى القوة العاقلة. أمّا أرسطو (322.384ق.م) فقد أقرّ أن لكل مخلوق طبيعته الخاصة به التي تميّزه عن الآخرين، وبناءً على ذلك، فالإنسان لا يكون فاضلاً إلاّ إذا كانت تصرفاته مطابقة لطبيعته العاقلة، ويعرفها ابن رشد (ت. 595 هجرية) "بأنها ملكة تقدرة كل فعل من جهة ذلك التقدير أو يظن بأنه خير"[1]، أمّا "توما الإكويني" (ت. 1274م) فيطلقها على صفة طيبة للنفس، ومن خلالها تستقيم الحياة بحيث لا يسيء أحد استخدامها"[2].

ينتمي هؤلاء الفلاسفة إلى نزعات مختلفة، لذلك جاءت تحليلاتهم لمفهوم وطبيعة الفضيلة مختلفة، إلاّ أنّ هناك خاصيّة مشتركة تجمع فيما بينهم، أساسها أنّ الفضيلة لا تخرج عن دائرة الأخلاق. وهذا أمر طبيعي، بل غير الطبيعي أن تعالج خارج هذا الإطار. إذا كانت هذه هي الفضيلة من منظور الفلاسفة الكلاسيكيين، فإنّ الأمر لا يبدو من السهولة للتّعرف على ما كان ماكيافيلي يقصده بمصطلح الفضيلة دون الرجوع إلى النصوص والفقرات التي ورد فيها، لاستخلاص المعنى الذي وظفه للتعبير عنها. يقول ماكيافيللي في أحد نصوصه: "إذا واجهت الفضيلة الرعب، تحمل السلاح وسرعان ما تدحره لأنّ قلوب ايطاليا الباسلة لا تزال موجودة ولن تموت"[3]، ويقول في نص آخر: "ولا ريب أنّ داوود كان رجلا رائعا للغاية كجندي وكمعلم وكقاض وكانت فضيلته من النوع الذي مكّنه بعد أن هزم جميع جيرانه واحتل بلادهم من أن يخلّف لولده الشاب سليمان مملكة وادعة، كان في وسعه الحفاظ عليها بأساليب مسالمة بدلا من الأساليب الحربية وأن ينعم فيها بثمار ما كان لوالده من فضيلة"[4]، وفي نص آخر يقول: "يشاء طالع عظام الرجال وبارزيهم، أن يكونوا دائما من المغمورين في أوقات السكينة والسلام وذلك لأن الشهرة الداوية التي حققوها بفضيلتهم (شجاعتهم) تثير الغيرة في صدور الكثيرين"[5].

وإذا أردنا الوصول إلى نتيجة من خلال تحليل هذه النصوص، لا يسعنا إلاّ أن نسلّم أنّ المعنى الذي وردت فيه معاني الفضيلة في هذا السياق ما هي إلاّ للدلالة على معنى "الشجاعة وهذا ما أراد أن يثبته ماكيافيللي في النص الأول، حيث أن الشجاعة التي كانت متوافرة عند الرومان والتي حققوا من خلالها عديد الانتصارات لا تزال كامنة في قلوب الإيطاليين على الرغم من الفساد الذي انتشر، كذلك الأمر نفسه بالنسبة للمعنى الذي وردت فيه في النص الثاني، حيث يمتدح ماكيافيلي "داوود"

---

[1]- محمود حمدى زقزوق، مقدمة في علم الأخلاق، ط.3، الكويت، دار القلم، 1963، ص 145.
[2] - محمد عبد الستار نصار، دراسات في فلسفة الأخلاق، الكويت، دار القلم، د.ط، 1982، ص 235.
[3] - ميكيافلي، الأمير، تر: عبد الرزاق عبيد، الجزائر، دار تلانتيفيت للنشر، د.ط، ص102.
[4]- ميكيافيلي، المطارحات، تر: خيري حماد، بيروت، المكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع، ط.1، 1962، ص 208-209.
[5]- المصدر نفسه، ص 664.

الذي تمكن عن طريق شجاعته من هزيمة واحتلال جيرانه، ويورث لابنه الشاب سليمان مملكة وادعة، وإلى نفس الرأي ذهب مترجم كتاب المطارحات خيري حمّاد باعتقاده أنّ المعنى الذي وردت فيه "الفضيلة"في النص الثالث ما هي إلاّ للدلالة على معنى "الشجاعة".
وإذا أردنا أن نقدم المزيد من الحجج لإثبات ذلك، فما علينا إلاّ الاتجاه إلى نصوص كتاب" المطارحات"، ليستوقفنا حديث ماكيافيلي عن الحروب التي خاضها السمنيون مع الرومان، وكيف دفعت الهزائم المتتالية التي لحقت بهم، قادتهم اللجوء إلى الدين كملاذ أخير لتقوية عزائم جنودهم وحملهم على عدم التقاعس أثناء الحرب من خلال إجبارهم على القسم بعدم التوان في القتال، من خلال طقوس معينة ترغمهم على التوجه بوعودهم إلى الآلهة بأنّهم على استعداد تام للذهاب أين يأمرهم قادتهم العسكريون، حيث يقول: "وعندما وقع الاشتباك غلب السمنيون* على أمرهم، لأن شجاعة الرومان والخوف الذي بعثته هزائمهم السابقة في نفوسهم عملت على التوازن مع أي عناد اكتسبوه من فضيلة دينهم ومن القسم الذي أقسموه، ومع ذلك فقد اتضح لهم أنّ ليس أمامهم ما يستطيعون الرجوع إليه، وأن ليس لديهم أي علاج يستطيعون تجربته جريا وراء الفضيلة التي فقدوها"[1].

إلى جانب هذا، فإن هناك نصوصًا أخرى استعمل فيها ماكيافيللي مصطلح الفضيلة للدلالة على معنى الشجاعة، وهذا ما يبدو جليا من خلال حديثه عن الحرب التي قامت بين الرومان واللاتين، حيث قادت شجاعة القنصلين الرومانيين إلى تثبيت عزائم الجنود الرمان، مما أدى إلى نصرهم حيث ضحّى أحدهم بنفسه والآخر بولده، حيث يقول: "ولـمّا كان هذا العزم قد ثبت في صدور الرومان مدة أطول من ثباته في صدور اللاتين، فقد كان هذا وليد الصدفة من ناحية ووليد ما تمتع به القنصلان من فضيلة تمثلت في قتل توركواتوس لولده، وقتل ديوسيس لنفسه "[2].

غير أنّه إذا ما تمعنّا في دراسة وتحليل بعض النصوص الأخرى، نجد أن "ماكيافيلي" يتحدث عن الفضيلة ويقصد بها معنى " الكفاية" أو "الحكمة والتعقل"، وهذا عندما امتدح القادة والأمراء الذين أسسوا ممالك وحافظو عليها، أو حققوا انتصارات لأوطانهم، حيث يقول في هذا الصدد: "عندما تخلصت روما من ملوكها انتهت معهم الأخطار التي ينطوي عليها ارتقاء ملك ضعيف أو ملك سيء سدة العرش، وقد تركز سلطان السيادة الآن في القناصل. الذين لم يكونوا ينالونه عن طريق الوراثة أو الخديعة أو العنف الذي يوحي به الطموح، وإنّما كانوا يصلون إليه عن طريق أصوات الشعب الحرة. وكانوا تبعا لذلك، من أقدر الرجال وأكثرهم كفاية وازدهرت روما في ظل حكمهم الفاضل وواكبها حسن الطالع مرة تلو الأخرى، حتى تمكنت من بلوغ أقصى درجة من العظمة التي عاشت فيها سنين طويلة لا تقل عن السنوات التي عاشتها خاضعة لملوكها السابقين"[3].

* - السمنيون: قبائل إيطالية كانت تسكن في أبوليا، على مقربة من بلاد اللاتين حاولوا غزو كابوا في القرن الرابع مما أدى إلى حروب مستمرة مع الرومان، (أنظر: المطارحات، ص274).
[1]- المصدر نفسه، ص 277.
[2] - المصدر السابق، ص 491.
[3] - المصدر نفسه، ص 297.

كما أنّه كثيرا ما امتدح الأمراء والحكام الذين اعتمدوا في تشكيل قوتهم العسكرية على قواتهم الخاصة، وهي الفكرة التي دافع عليها كثيرا لـمّا كان موظفًا في حكومة فلورنسا. وإذا كان من بين الذين نالهم الكثير من الثناء من ماكيافيللي، فلا ريب أن يكون "توللوس"*، حيث يصفه "بالفاضل" ويقصد هنا بمعني الفضيلة "الكفاية" وتتجلى فضيلة (كفاية) "تولدّوس" في نظر ماكيافيللي في أنّه ستطاع في وقت قصير من حكمه من إنتاج جنود ممتازين، عندما دفعته الضرورة إلى الحرب رافضًا بذلك اللجوء إلى السمنيين أو التوسكان للإفادة منهم، رغم أنه لم يجد في مملكته رجلا قد خاض الحرب من قبل[1].

وكثيرا ما تحدث ماكيافيللي عن فضيلة "نوما بومبيلوس"*، ولا يذهب معنى الفضيلة هنا إلى "الشجاعة"، ذلك أن نوما كان مسالما ومتدينا ولا يميل كثيرا إلى تعشّق الحرب، بل تميّز بالحكمة والتعقل التي جعلت روما مدينة له أكثر من غيره عندما قادته فضيلته (كفايته) اللجوء إلى الدين اعتقادا منه أنه سلطة واجبة وضرورية، إذا استخدمت استخداما حسنا في معالجة القضايا، لإرغام الشعب على تعود الطاعة المدنية كحل أخير، عندما رأى ما هي عليه حالة الشعب من قسوة وعنف، وهو ما تمّ من خلال وضعه "دين" ضمن بواسطته أن لا يخاف الله في أي مكان آخر طيلة قرون كما يخاف في هذه الجمهورية[2].

لكن، إذا كان الأمر كذلك، ما هو المعني الحقيقي للفضيلة إذاً؟

يقول ماكيافيلي في أحد نصوصه: "تظهر هذه الفضيلة التي تمتّع بها كل من "روملوس" و"نوما بومبيلوس" و"توللوس"، ملوك روما الأوائل والأساليب التي اتبعوها مدى الطالع الحسن الذي حبيت به المدينة في أن يكون حاكمها الأول محاربا ضاريا، وأن يخلفه أمير آخر مسالم ومتدين، وأن يكون ثالثهم محاربا يتمتع بالحماس العسكري الذي عرف به "روملوس"، ويتعشق الحرب أكثر من تعشقه للسلام"[3].

يتضح من خلال هذا النص أن الفضيلة عند ماكيافيللي ليس لها معنى واحد، فهو يستعملها للدلالة على معنى الشجاعة، عندما يتحدث عن "روملوس" الذي كان محاربا ضاريا ممّا مكنته من تأسيس روما وإقامة تشريعاتها، كما يستعمله مرات أخرى للدلالة على "الكفاية" عند حديثه عن "نوما"، والذي يعتبر روما مدينة له أكثر من "روملوس". رغم أنه لم يكن متعشقا للحرب بل كان مسالما متدينًا، وذلك لأنّه،تميَّز بالحكمة والتعقل ما سمح له بالحفاظ على الجمهورية وتنظيمها عدة قرون، من خلال لجوئه إلى تثبيت "الدين" لحمل المواطنين الذين يتميزون بالقسوة والعنف على طاعة القوانين، غير أنّ ما يمكن قوله أن ماكيافيللي في الغالب يستعمل مصطلح الفضيلة للدلالة على معنى الشجاعة

---

* - توللوس: أحد ملوك روما الثلاث الأوائل.
[1] - المصدر السابق، ص 298.
* - نوما بوميلوس: (715. 672 ق.م)، وهو الملك الأسطوري الثاني لروما بعد روملوس.
[2] - المصدر نفسه، ص 263.
[3] - المصدر نفسه، ص 293.

عند حديثه عن بسالة الجنود وقادتهم أثناء الحرب أي "الفضيلة الحربية"، والكفاية عند حديثه عن الأمراء والحكام الذين يحسنون إدارة دفة الحكم وتنظيم الجيوش في الأوقات العصيبة.

لكن حتى هذا لا يحل الإشكال، لأنّه إذا سلمنا أن "الفضيلة" التي يتحدث عنها ماكيافيلي المقصود بها "الكفاية" و"الشجاعة"، فإننّا سنجده في بعض نصوص كتابه "الأمير"، ينفي صفة العظمة عن "أغاتوكل"* على الرغم من توافره على هاتين الصفتين، والسبب في ذلك، أنّ قسوته ولا إنسانيته وخياناته المتعددة لم تكن موجهة إلى خدمة المصلحة العامة، بل كانت رغبة شخصية منه في أن يصبح حاكما على "سراقوزا"[1]، وعلى العكس من ذلك تماما، نجده يمتدح كثيرا "موسى" عليه السلام و"كورش" و"رومليوس" ويصفهم بالعظماء، وذلك لأنّهم عرفوا كيف يستغلون مهاراتهم وشجاعتهم في خدمة أوطانهم. فحتى وإن عرف "رومليوس" بقسوته وعنفه الذي دفع به إلى قتل ابنه ورضاه بمقتل زميله. إلا أنّ ماكيافيللي يبرر له فعلته، لأن غاية "رومليوس" كانت المصلحة العامة لا مصالحه الشخصية.

وبناء على ذلك، فإن الحاكم أو الأمير الذي يتمتع "بالكفاية والشجاعة" لا يمكن أن يكون فاضلا، إلاّ إذا كانت أفعاله موجهة لخدمة المصلحة العامة. لذلك، نجده في كتابه "فن الحرب" ينفي صفة الفضيلة عن الجندي حتى ولو كان في منتهى البسالة إذا لم تكن موجهة إلي خدمة وطنه، حيث يقول: "إن كل مواطن يمارس مهنة الحرب لهدف خارجي لا يكون مواطنا صالحا إذ أنّ عليه أن يخدم بلاده لأنّها في حاجة إليه وأن يحارب في سبيل المجد"[2].

بناء على ما سبق، نستنتج أن ماكيافيللي لم يتكلم عن الفضيلة كما أتى على ذكرها المفكرون والفلاسفة من قبل، أي على مستوى دائرة الأخلاق، بل استعملها على مستوى السياسة، لذلك فالفضيلة التي يتحدث عنها ليست "الفضيلة الأخلاقية"، بل "الفضيلة السياسية"، والتي تكون مطلوبة عند الحكام والجنود على السواء فماكيافيللي حسب ليو شتراوس يميل إلى التمييز بين الخيرية والفضائل الأخرى إلى أن يصبح تعارضا بين "الخيرية" و"الفضيلة". فإذا كانت "الفضيلة" كما قلنا مطلوبة للحكام والجنود فإن "الخيرية" مطلوبة للعوام الذين يشتغلون بوظائف سلمية[3].

و"الفضيلة" بهذا المعنى التي يجب توافرها في الحكام إذا ارتبطت بالواقع والممارسة ليست ثابتة، بل هي متغيرة بحسب الظروف، وهذا ما سنعرفه فيما بعد.

يولي ماكيافيللي إذن أهمية كبيرة لدور "الفضيلة" في حياة الدول، حيث ساهمت في رأيه فيما وصلت إليه الإمبراطورية الرومانية قديما من رقي وازدهار. وهو يمني نفسه أن يظهر في ايطاليا رجل يتمتع

---

* - أغاتوكل: (321.279) ق.م، طاغية سراقوزه. أنظر: المطارحات، ص472.

[1]- ماكيافيللي، الأمير، تر: عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص 51.

[2] - ماكيافيللي، المطارحات، مصدر سابق، ص125.

[3] - ليو شتراوس، جوزيف كوربسي، تاريخ الفلسفة السياسية، تر: محمود سيد أحمد، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام، مصر، المجلس الاعلى للثقافة، د.ط، 2005، ص437.

"بالفضيلة" لكي يعيد لها وحدتها واستقرارها.فإيطاليا وإن عمّ الفساد في جميع طبقاتها، إلاّ أنه يعتقد أن هناك منابع للفضيلة مازالت كامنة في قلوب الإيطاليين حيث يقول: "إن ايطاليا تتوفر على طاقات قابلة للإصلاحات الأكثر شمولية، وهذا من شأنه أن يفجر الشجاعة الكامنة في أي فرد"[1].
فالفضيلة في نظر ماكيافيللي كانت موجودة ولا تزال موجودة وكل ما يتغير هو توزيعها وفي هذا يقول: "عندما أستعرض في ذهني أنّ الأحداث تتابع سيرها على هذا النحو. يبدو لي أن العالم كان دائما في نفس الوضع وأنه انطوى دائما على قدر من الخير يعادل ما انطوى عليه من الشر، ولكن هذين الخير والشر كانا يختلفان دائما من إمارة لأخرى، ويتضح هذا عما نعرفه عن الممالك القديمة التي تبدل فيها الميزان بين الخير والشر من أحدهما للآخر. بسبب التبدلات التي وقعت في أعرافها في حين ظل العالم على ما هو عليه دون أن يتغير"[2]. فالفضيلة حسب ماكيافيللي دائما موجودة وكل ما يحدث أنها تنتقل من شعب لآخر، ومادام الأمر كذلك، فإمكانية استعادتها تبقى قائمة.

1- الفضيلة والضرورة

في كتابي "الأمير" و"المطارحات"، نجد ماكيافيللي يستعمل عبارات مثل "يجب"، "من الضروري"، "ولابد". بحيث يتكرر ورودها في نصوصه أكثر من مرة، حيث يقول، مثلاً: "ولما كانت جميع القضايا الإنسانية من ناحية أخرى.في حالة مستمرة من الحركة والتمدد ولا يمكن لها أن تقف جامدة راكدة فإن هذه القضايا تكون دائما معرضة إمّا إلى التحسن أو التدهور والانهيار وقد تدفعك الضرورة إلى القيام بأعمال قد لا يقف التعقل والمنطق إلى جانبها"[3]. وفي نص آخر، يقول: "إنّ الشعوب سريعة التقلب بطبعها، وإذا كان من السهل حملها على الاقتناع بشيء معين فإنه من الصعب أن تعزز فيها تلك القناعة. يجب أن تتم الأمور حينئذ على النحو التالي، وهو إذا لم تقتنع الشعوب بالأمر فيجب إقناعها بالقوة"[4].

ويتضح من خلال هذا، أن ماكيافيللي يقدم النصائح للأمراء والحكام إن أرادوا الحفاظ على أنفسهم، بأن لا يغفلوا عن الظروف والأوضاع التي تحيط بهم، وبالتالي فقراراتهم وسلوكاتهم ينبغي أن تكون مواتية ومنسجمة مع ما تقتظيه الظروف المحيطة، وليس هذا ما نريد أن نبيّنه، بل الأهم من ذلك، هو دراسة المعنى الذي وردت فيه تلك العبارات التي سبق ذكرها. ويبدو من خلال النصين السابقين، أنّ "ماكيافيللي" يريد أن يبين أنّ هناك منطق يجب على الحكام أخذه بعين الاعتبار وهذا المنطق هو منطق "الضرورة".

لا يبدو أنّ ماكيافيللي يقصد "بالضرورة" على نحو ما يذهب إليه علماء اليوم، أي أنّ هناك علاقة حتمية بين الأسباب والنتائج المترتبة عنها، بحيث إذا توافرت نفس الأسباب فإن الضرورة تحتّم علينا

[1]- ماكيافيللي، الأمير، تر: عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص 162.
[2] - ماكيافيللي، المطارحات، مصدر سابق، ص423.
[3] - المصدر نفسه، ص238.
[4]- ماكيافيللي، الأمير، تر: عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص 35.

القول إن نفس النتائج هي التي سوف تحدث، بل كل ما يريد قوله أنّ الحاكم أو الأمير الذي أخذ على عاتقه مسؤولية الحفاظ على نفسه، وعلى دولته يسلك وفق ما يشاء إذا كانت الأمور في حالتها العادية، لكن أحيانا أخرى يجد نفسه مرغما على سلوك طريق معين مرغما، بحيث لا يصبح المجال فسيحا أمامه للاختيار إن هو أراد الحفاظ على نفسه وعلى دولته، والذي يرغمه هي تلك "الظروف والأوضاع" التي يجد الأمير فيها نفسه غير قادر على الاختيار. فهي التي تملي عليه الطريق الذي يجب إتباعه أثناء حكمه لشعبه مهما كان نوعه باعتباره الطريق الوحيد الذي يحقق الغاية وهي الحفاظ على الدولة، ومنه فقد يلجأ الأمير إلى اتباع طريق القسوة والعنف إذا انتشرت الفوضى والفساد، ويصبح ذلك النوع من الحكم مبررا ما دام الطريق الوحيد والأنسب.

كما قد يذهب معنى الضرورة عند ماكيافيللي إلى تلك الحاجة الملحة التي لا تستدعي انتظارا عندما يقول مخاطبا "قيصر بورجيا": "إنّ قضيتك عادلة، وبالتالي فهي ضرورية"[1]، وحتى هذا المعنى لا يخرج عمّا أوردناه في الفقرة السابقة، لأنه وفي نظر ماكيافيللي مادامت قضية "بورجيا" عادلة، فهي ضرورية، ولا تستدعي منه التفكير، بل لابد من العمل على تحقيقها في أقرب وقت.

ويعتبر "منطق الضرورة" عند ماكيافيللي مبدأ عمل دائم تسير وفقه الحياة السياسية سواء أيام "السلم" أو "الحرب"، فهو معيار المعاملة لدى الأمير سواء في علاقته مع شعبه أو مع الحكام الآخرين، وفي هذا يقول: "ولا ريب أنّ الإنسان الذي يريد امتهان الطيبة والخير في كل شيء سيصاب بالحزن والأسى عندما يجد نفسه محاطا بهذا العدد الهائل من الناس الذين لا خير فيهم، ولذلك من الضروري لكل أمير يرغب في الحفاظ على نفسه أن يتعلم كيف يبتعد عن الطيبة والخير، وأن يستخدم هذه المعرفة أو لا يستخدمها وفقا لضرورات الحالات التي يواجهها"[2].

وبناء على ذلك، فإن الحاكم أو الأمير "الفاضل" الذي يكون هدفه خدمة المصلحة العامة لا مصالحه الشخصية الضيقة، هو الذي يراعي أثناء تسيير شؤون رعيته عامل "الضرورة" بحيث يكون من الحيطة والحذر الذي يجعله يسلك طريق الخير، لكن إذا تحتّم عليه الأمر فلا يجب أن يتوانى عن سلوك طريق الشر.

إنّ المتأمل في كتابات ماكيافيللي يدرك تمام الإدراك أن ماكيافيللي نفسه كان خاضعا لمنطق "الضرورة" الذي تحدث عنه. فلقد قرأ كثيرا عن التاريخ القديم من خلال مؤلفات "تيتوس ليفوس"*، وأعجب أيّما إعجاب بالنظام الجمهوري الذي كان سائد في الإمبراطورية الرومانية. وكثيرا ما نجده في نصوصه يقيم الدليل على تفضيله للنظام الجمهوري، لكن انطلاقا من الواقع السياسي والاجتماعي الذي عاصره، وملاحظته لسلوكات الأفراد الأنانية وتصرفاتهم مع الحكام، والفساد والانقسام الذي أدت

1- ماكيافيللي، الأمير، تر: فاروق سعد، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، د.ط، 1982، ص199.
2- المصدر السابق، ص 136.
*- تيتوس ليفوس: خطيب ومؤرخ روماني، ولد سنة 59 ق.م وتوفي 17 ميلادي، ألف مؤلفًا حول تاريخ روما، يتكون من 142كتاب، علّق على بعضها ماكيافيللي في كتابه المطارحات (أنظر: المطارحات ص 11).

إليه الكنيسة أرغم ماكيافيللي على تأكيد ضرورة الحكم المطلق كحل مؤقت لمعالجة الداء الذي عانت منه إيطاليا.

ومنه وطبقا لمبدأ الضرورة، فإن الحاكم يلجأ إلى تعليق كل شيء بما في ذلك القانون والدين والقواعد الأخلاقية العادية في سبيل خدمة المصلحة العامة التي هي فوق كل اعتبار. فالمصلحة العامة في الأخير هي التي تبرر الخروج عن القواعد الأخلاقية المتعارف عليها، ومن ثم فالسلوك الذي يأتيه الأمير لا ينبغي إدانته مهما كان مشينا. بوصفه الطريق الوحيد المتاح أمامه لتحقيق غايته. وإن وصلت روما إلى ما وصلت إليه قديما من الازدهار والعظمة في نظر ماكيافيللي، فلا يعود ذلك إلى الحظ أو حسن الطالع، بل لأن حكامها عرفوا كيف يسلكون طريق الخير، وفي مقابل ذلك كانوا من الحيطة بحيث لا يتوانون عن سلوك طريق الشر إذا تطلب الأمر ذلك. يقول ماكيافيللي: "والضرورة فقط هي التي دفعت الرومان قديما إلى اللجوء إلى الغلظة مع مواطنيها بعد طرد الملوك "الترقونيين" طالما كان ثمة خطر من احتمال عودتهم"[1]. لذلك، يري ماكيافيللي أنّ التاريخ يعلمنا أنّ الحكام الذين لم يهملوا ما تدعو إليه الحاجة الراهنة، نجحوا في حكمهم، فها هو قيصر "بورجيا" يعمد إلى تعيين "روميرو دي أوركو" لإنهاء الاضطرابات لما اشتهر به من قسوة. إيمانا من "بورجيا" أنّ القوة والعنف هما السبيل لإحلال النظام والاستقرار، لكن وفور تحققه، دفعت الضرورة "بورجيا" إلى إبعاد "أوركو" عن السلطة خوفا من أن يبدأ المواطنون في كرهه بسبب قسوته تلك، ليلجأ إلى إرساء قواعد مدنية تحت سلطة رجل بارع، لأن ضرورة حفظ النظام العام تتأتي هذه المرة من شرعية الشعب. ولم يتوقف عند هذا الحد لما دفعته خشيته أن تكون أعمال "أوركو" قد ولّدت الكراهية في نفوس المواطنين، ولتجنب هذا الاحتمال عمل على قتله بطريقة نالت استحسان الشعب عندما نظروا إليه على أنه حاميهم[2].

وهكذا، يقدم ماكيافيللي النصيحة للحكام بأن يكونوا على استعداد للتصرف على منوال "بورجيا" متَّى اقتضت الضرورة ذلك، وأن يكونوا من المرونة لتغيير وجهات نظرهم فلا يسلكوا نفس السلوك إذا تغيرت الظروف والأوضاع، ولهذا يقول: "وهكذا عندما لا يدرك الرجل الحذر كيف يكون عنيفا متى ما توجب ذلك، فإنه يقود نفسه بنفسه إلى السقوط"[3]. إذا كان هذا هو الطريق الذي أدى بالقدماء إلى تحقيق العظمة، فما على حكام اليوم إلاّ الاقتداء بهم، لأن طبيعة البشر واحدة، وما نجح في الأيام السابقة، لا يمكن إلا أن يؤدي إلى نفس النتائج اليوم، لذلك فطريق الخير محمودة، ولكن طريق الشر أيضا تصبح طريقة فعّالة عند الضرورة. وفي هذا الصدد يقول: "يمكن أن نصارع بطريقتين: إمّا بواسطة القوانين أو بواسطة القوة. أمّا الطريقة الأولى، فهي خاصة بالبشر، وأما الثانية فهي خاصة بالدواب. ولأنه غالبا ما لا تغني القوانين فنكون حينئذ مجبرين على اللجوء إلى القوة"[4].

---

[1] - ماكيافيللي، المطارحات، مصدر سابق، ص95.

[2]- ستيفن ديلو، الفكر السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني، تر: ربيعة وهبة، القاهرة، د.ط 1997، ص 153.

[3]- ماكيافيللي، الأمير، تر: عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص 156.

[4] -المصدر السابق، ص 106.

ينبغي إذن، على الأمير أن يعرف كيف يتصرف بحسب المناسبة إمّا كحيوان أو كإنسان، وهذا حسب ما تمليه عليه الضرورة. فلا مجال للاختيار بالنسبة للأمير الجديد إلا أن يسلك طريق القسوة والعنف، وذلك لأن الأخطار تتضاعف وتكون أكبر في هذه الدول، وفي هذا الصدد يقول: "ينبغي أن ندرك جيدا أنه من غير الممكن للأمير خاصة إذا كان حديثا في المنصب أن يحافظ على كل ما من شأنه أن يجعل الناس يذكرونه بخير، وإن كان مضطرا غالبا، من أجل تثبيت الدولة أن يعمل ضد الإنسانية وضد الرحمة، وينبغي أن يكون متمتعا بفكر مرن جدا ليلتفت إلى الأشياء حسبما توجهها له رياح الصدف وأحداثها، ينبغي كما قلت أن لا يحيد عن طريق الخير بالقدر الذي يستطيع أن يعرف عند الضرورة كيف يلج طريق الشر"[1].

وإذا كان مبدأ الضرورة يتحكم في العلاقة بين الحاكم ورعيته، فكذلك الأمر نفسه بالنسبة لمنطق "الحرب". وكثيرا ما أكد ماكيافيللي في كتابه "فن الحرب" على ضرورة أن يكون فن "الحرب" الشغل الشاغل للأمير في أوقات الحرب كما في أوقات السلام، بل أن يكون المهنة الأولى للحاكم بحيث يعنيها كثير اهتمامه أكثر من أي شيء آخر، كما ينصحه أن يتقيد بضروراتها، فلا يلجأ إلى طريق الخير، لأنه سيؤدي إلى هلاكه، وذلك لأن منطق "الضرورة" الذي يحكم الحرب لا يعترف بالقيم الأخلاقية، يقول: "إن الحرب هي مهنة الحكام الخاصة، ورسالتهم الممكنة دائما، وهي تفرض الاستجابة لضرورة طبيعتها، اللجوء إلى العنف وإلى المجازفة واللؤم، وإلى طائفة أخرى من الرذائل التي تحول الحكام بالضرورة إلى أشرار، كما لو أن خبث البشر لا يمكن السيطرة عليه وإخضاعه للنظام والسلام إلا بالخبث"[2].

وإذا أردنا أن نصل إلى نتيجة من خلال كل ما سبق، فلا يسعنا إلا أن نقول أن منطق "الضرورة" يشكل مكانة هامّة في الفكر السياسي عند ماكيافيللي، فعلى أساسه تختبر كفاءة وحكمة الأمير، فهو الذي يعلمه كيف يطيح بالقيم الأخلاقية التي تعتبر من القضايا الجوهرية والأساسية في الحياة اليومية العادية من أجل تحقيق المنافع المهمة لشعبه، ووفقا لهذا المبدأ، تبرر كل الوسائل التي يلجأ إليها الحاكم لبلوغ أهدافه، وذلك لأن الضرورة لا تعرف قانونا.

1- الفضيلة السياسية والفضيلة الأخلاقية

لقد كان ماكيافيللي رجل سياسة وممارسة إذ لم يكن هدفه البحث عن النظام السياسي الأمثل الذي يحقق العدالة والمساواة، بل بحث في الأساليب التي يجب على الحكّام اتباعها في أوضاع وظروف محددة. فلا أحد ينفي كما يعتقد ماكيافيللي أنّه من الخيّر للأمير أن يكون رحيما ومتدينا وصادقا وسخيا... لكن، هذا يبدو متعذرا في عالم يعيش فيه الأفراد مثل الذئاب، حيث غابت المعايير الأخلاقية التي تحكم سلوك الأفراد وأصبحوا يعيشون في عالم عمّت فيه الشرور وعمّ فيه الفساد.

---

[1] - المصدر نفسه، ص 109.

[2]- ريمون بولان، الأخلاق والسياسة، تر: عادل العواط، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط.2، 1982، ص 731.

والحقيقة التي ينبغي على الحكام أخذها بعين الاعتبار حسب ماكيافيللي، إمّا أن يتصرفوا وفق ما هي عليه الطبيعة البشرية، وإمّا أن يعرضوا أنفسهم للهلاك، وفي هذا يقول: "سيكون جميلا جدّا ومن دون شك وباتفاق الجميع أن تكون الخصال الحميدة التي أتيت على ذكرها مجتمعة في الأمير، ونظرا لاستحالة ذلك ونظرا لكون الظروف البشرية لا تحتمل ذلك أبدا. فيجب أن تكون على الأقل هناك حيطة للتخلي عن هذه النزوات المشينة التي قد تؤدي به إلى تضييع دولته، وأمّا ما تعلق بالفضائل الأخرى فإني أنصحه با لتمسك بها إن استطاع إليها سبيلا وإن لم يستطع فلن يكون هناك مانع كبير في ترك نفسه على سجيتها مع قليل من التحكم"[1].

ولا ينبغي على الأمير أبدا في نظر ماكيافيللي أن يخشى أن يتهم ببعض العيوب، ذلك أن العامّة قصيرى النظر فلا يحكمون على الأفعال إلا من ظاهرها، في حين أنّ الأفعال التي يأتيها الأمير فوق مستوى الوعي الذي يتوافر عليه عامة الشعب، لذلك يكفى أن تكون النتائج مستحسنة حتى يسارعوا إلى الالتفاف حوله. وذلك لأنه في ميدان السياسة تتبدل القوانين، فما يبدو فضيلة على مستوى الأخلاق العادية قد يصبح رذيلة على مستوى النسق السياسي، وكذلك الأمر نفسه كثيرا ما تبدو بعض الأفعال رذيلة من منظور الأخلاق العادية، إلا أنّها تصبح وسيلة فعّالة عند الضرورة، وبالتالي تصبح فضيلة من الفضائل على مستوى النسق السياسي[2]، والحاكم أو السياسي الذي لا يرضخ لهذه الضرورة، فإن عمله آيل للإخفاق والفشل لا محالة.ولتجنب هذه النتيجة فما عليه إلاّ أن يتصرف بحيطة وحذر، وأن لا يولي عناية كبيرة للوسائل التي يستعملها مادام الحفاظ على الدولة لا يتم إلا من خلالها، وذلك لأن الأخلاق التقليدية قد تكون جوهرية في ممارسة العلاقات في إطار الأسرة أو بين الأصدقاء، ولكن ليس لها وجود في الغالب في نظام يدعو الأمير إلى إظهار الجرأة والشجاعة المطلوبتين لضبط الأحداث العامة بغرض منافع عامة[3].

وانطلاقا من كل هذا، فإن ماكيافيللي في كتابه "الأمير" لا يتوانى عن تقديم النصائح للأمير الذي وجد نفسه في مثل هذه الأوضاع أن يلجأ إلى سبل الشر كالقسوة والعنف والغدر والحيلة بوصفها رذائل على المستوى الأخلاقي، لكن في ميدان السياسة تصبح وسيلة فعالة من أجل حفاظ الحاكم على دولته. لذلك، نجده يقدم له المبرر للجوء إلي القسوة والعنف إذا كان في ذلك ما يؤدي إلي وحدة رعاياه وولائهم. حيث أن القسوة تبعث الخوف في نفوس الأفراد مما يحملهم على طاعته، ذلك أنّ الأفراد بطبيعتهم يترددون في الإساءة لمن يخافونه أكثر، من ترددهم في الإساءة للأمير الذي يجعل نفسه محبوبا والأمر نفسه ينطبق على الأمير إذا كان على رأس جيشه خاصة إذا كان عدده كبيرا، لأنه وبدون هذه الشهرة لن يتمكن من ضبطه وحمله على الطاعة، ولولا هذه القسوة لما تمكن "حنبعل" من السيطرة على جيوشه. قد تبدو هذه الخصلة مشينة، ولا أخلاقية، لكنها ضرورية، لأن من يغفل عنها

[1] - ماكيافيللي، الأمير، تر: عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص 94.
[2] - ماكيافيللي، المطارحات، مصدر سابق، ص128.
[3] - ستيفن ديلو، مرجع سابق، ص152.

ما يحدث له هو عين ما حدث مع "سيبيون" الذي اشتهر بالشفقة والرأفة ما جعل جنوده يسمحون لأنفسهم بالكثير من التسيب المنافي للانضباط العسكري، وهو ما أدّى في النهاية إلى ثورة جنوده عليه[1] فما على الحكام في نظر ماكيافيللي اليوم، إلاّ التمعن في المثالين السابقين وسلوك الطريق الذي يتوافق مع غاياتهم إنْ هُم أرادوا الحفاظ على أنفسهم وعلى دولهم، ولا ينبغي القول أنّ ماكيافيللى يناقض نفسه عندما وجه اللّوم إلى " قيصر بورجيا"، فاللوم ليس واقعا في هذه الحالة على أساليب القسوة والعنف والنهب التي كان "بورجيا "يتبعها وإنما اللّوم واقع على سماحه "لجوليوس الثانى" أعدى أعدائه بأن ينتخب لمنصب البابوية بعد وفاة الكسندر السادس[2].

وإلى جانب القسوة يعتبر ماكيافيللي أنّ "البخل"وإن كان رذيلة من الرذائل، إلاّ أنه يصبح وسيلة ضرورية وفعّالة لابد من اللجوء إليها، حيث يقول: "ينبغي على الأمير الذي لا يريد أن يضطر لإفقار رعيته، ولا يريد هو نفسه أن يصبح فقيرا أو ممقوتا من أجل الدفاع عن عرشه.ألاّ يخشى كثيرا إمكانية وصمه بالجشع، فهي إحدى الخصال السيئة التي تسمح له بتسيير الحكم"[3]. ويحقق هذا السلوك غايتين، فمن ناحية عن طريق تقتير الأمير وشحه يستطيع توفير وسائل الدفاع اللازمة لدولته، وفي الوقت نفسه لا يضطر لإرهاق شعبه، ومن ناحية أخرى يتجنب الأمير كراهية شعبه. ذلك أنّ إفراطه في السخاء يؤدى إلى فقره ومن ثم إلى كراهيته، وهذا ما ينبغي أن يتجنبه الأمير الفاضل. ويعطى ماكيافيللي الأدلة العديدة عن الأمراء الذين نجحوا في حكمهم عن طريق هذه الخصلة، حيث يقول: "لم نشاهد في وقتنا الحاضر إنجاز أعمال كثيرة، إلا من قبل الذين اشتهروا بالبخل أما البقية الباقية فقد ظلت في العتمة. .. ولو أن الملك الاسباني الحالي قد عرف بالسخاء لما استطاع تنفيذ كل تلك المشاريع"[4]، إلا أن ماكيافيللي يعتقد أن السخاء لابد منه وضروري بالنسبة للأمير الذي يخرج إلى الغزو مع جيوشه من أجل أن يحمل جنوده على الطاعة، ففي رأيه هذا ما فعله "سيروس" و"القيصر" و"الاسكندر" وما ينبغي أن يفعله حكام اليوم.

قد يذهب الاعتقاد أنّ ماكيافيللي يناقض نفسه، عندما نجده مرة يمتدح الأمير السخي، وتارة أخرى يؤكد على ضرورة اتصافه بالجشع، لكن هذا الاعتقاد سرعان ما يزول إذا عدنا إلى المبادئ التي أقرها ماكيافيللي في بحثه السياسي، عندما ركّز على ضرورة أخذ الظروف التي هو فيها الأمير بعين الاعتبار، فلا يمكن أن يأتي سلوكا واحدا إذا كانت الظروف قد طرأ عليها التغيير. لذلك نجده عند حديثه عن السخاء يفرق بين من يكون أميرا أو في طريقه للإمارة، حيث يرى أن السخاء في الحالة الأولى يؤدى به إلى الضرر، بينما يكون في الحالة الثانية ضروريا.ويضرب لنا ماكيافيللي، مثالاً عن "قيصر" حيث كان السخاء عاملا من عوامل الرقي الذي ناله لما كان في طريقه للإمارة، لكن

---

[1] - ماكيافيللي، الأمير، تر: عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص 104.103.
[2] - ارنيست كاسيرر، الأسطورة والدولة تر: أحمد حمدي محمود، مراجعة أحمد خاكي، المكتبة العربية، مصر، د.ط 1975، ص 198.
[3] - ماكيافيللي، الأمير، تر: عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص 99.
[4]- المصدر السابق، الصفحة نفسها.

ماكيافيللي يعتقد أنه لو قدر لقيصر أن يعيش طويلا وبقي على سخائه ذلك، لكانت إمبراطوريته آيلة للزوال[1]. ثم إن تأكيد ماكيافيللي على ضرورة السخاء بالنسبة للأمير الذي يخرج للغزو، راجع إلى أن الأمير في هذه الحالة لا يتصرف في ماله، بل يتصرف في ملك غيره المكتسب من السلب والنهب والغنيمة التي توفرها الحروب، وبالتالي لا يضطر الأمير إلى إفقار نفسه وهو ما لا يعرضه للكراهية، ومنه لا يكون السخاء مضرا به في هذه الحالة.

إضافة إلى ما سبق، فإن الضرورة تدعو الأمير إلى عدم المحافظة على عهوده، وهذا يبدو منافيا للأخلاق أيضا، لكن الأمير يجد نفسه ملزما على ذلك. فالأمير كثيرا ما يطلق وعودا إذا كانت لا تسبب له أي مشكلة، لكن عندما تزول تلك الأسباب التي دفعته إلى ذلك الوعد فلا يجب أن يتوانى عن نكث عهوده، حيث يقو: "إنّ الأمير النبيه لا ينبغي أن يفي بوعده عندما يغدو الوفاء مضرا به. وعندما تزول الأسباب التي كانت دفعته إلى ذلك"[2]. ولا ينبغي أن يفهم هذا الرأي بعيدا عن التصور الذي أعطاه ماكيافيللي عن الطبيعة البشرية، حيث أن الأفراد سيئّون بطبعهم، وهم بدورهم لن يحافظوا بوعودهم اتجاه من يحكمهم، وبالتالي فإنّ الحاكم الذي يبني حكمه على أقوالهم مآله الفشل، ذلك أنّ الأفراد متقلبون، وهم مع حاكمهم إن كانوا في حاجة إليه لكنهم مستعدون للانقلاب عليه إن كانوا عن الحاجة بعيدين، ومن هنا، يغدو الوفاء مضرا بالحاكم، إن هو أراد الحفاظ على نفسه وعلى دولته. وما ينبغي على الأمير فعله هو التظاهر بالتحلي بهذه الصفة فقط، وفي هذا يقول: "من المستحسن أن تعرف الدولة كيف تتزين بالألوان المحبوبة للوفاء والعدل والحق والاحترام الدقيق للاتفاقيات والإنسانية، ومن المستحسن إظهار أن هذا المعتدي والمنازع والظالم والمنتهك للحق والوعد هو الطرف الآخر. عدو الأمس واليوم والغد"[3].

وكما أن الوفاء يغدو مضراً بالأمير إذا التزم به أثناء حكمه لرعيته، فإن الأمر نفسه ينطبق على الأمير في علاقته مع الحكام الآخرين أو في سياسته الخارجية، ذلك أنّ طبيعة البشر واحدة، فالحاكم في سبيل الحفاظ على دولته يلجأ إلى وضع العديد من الاتفاقيات مع الدول الأخرى، يلتزم بالحفاظ عليها ما دامت تخدم مصلحته، إلاّ أنّه ينبغي أن يكون على استعداد لخرقها إذا دعت الحاجة والضرورة لذلك بحيث لم تعد خادمة لمصلحة دولته. والأمير الذي يحيد عن هذا الطريق، فإن ما يؤول إليه هو وقوعه تحت رحمة الآخرين، لذلك يرى ماكيافيللي أنه لو استعمل "فيرديناند الكاثوليكي" وهو ملك "ارغون وكاستي" الذي كان يشتهر بالسلم والإيمان هذين المبدأين دائما لما استطاع الحفاظ على دولته[4]. وقد استخلص ماكيافيللي مبدأه هذا، إضافة للتصور الذي أعطاه للطبيعة البشرية، من ملاحظته ودراسته للتاريخ والحوادث التي أثبتتها التجارب المعاصرة، وذلك أن الكثير من الأمراء

---

[1]- المصدر نفسه، ص 98.
[2]- المصدر السابق، ص 107.
- جون جاك شوفاليه، تاريخ الفكر السياسي من المدينة الدولة إلى القومية، تر: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط.1، 1985، ص 245.
[4]- ماكيافيللي، الأمير، تر: عبد الرزاق عبيد، مصدر سابق، ص 110.

الذين حققوا مآثر عظيمة لم يكونوا مكترثين كثيرا للوعود التي يطلقونها، وهذا على حساب أولئك الذين جعلوا من الوفاء مبدأ وقاعدة لسلوكهم، وفي هذا يقول: "يدرك الجميع مدى حب الرعية للأمير حينما يتسم بالوفاء في أقواله، ويتصرف بإخلاص ودون خداع، غير أننا شاهدنا في زمننا هذا أشياء كثيرة نفذها أمراء لم يكونوا يعيروا أدنى اهتمام للوفاء وكانوا يعرفون كيف يفرضون ذلك التراجع علي الرجال بواسطة الحيلة والخداع، ورأينا هؤلاء الأمراء في الأخير ينتصرون على أولئك الذين يجعلون من الوفاء قاعدة لسلوكهم فلا شك أنّ المغالطة والمراوغة كانت هي الشغل الشاغل للإسكندر... ولطالما وجد الفرصة في خداعه ذلك ولطالما أثمر خداعة ذلك عن النفع"[1]. ولكن ما ينبغي على الأمير أن يأخذه بعين الاعتبار إن أراد نكث عهوده، أن يكون من الدهاء والذكاء الذي يمكنه من إيجاد طريقة لتمويه الطرف الآخر، بحيث يتمسك بنص المعاهدة في ظاهريته بينما يتلاعب به في معانيه، مثلما فعله الرومان قديما وحققوا عن طريقه إنجازات عظيمة. ولتبيان هذا يعطي ماكيافيللي بعض الأمثلة ومنها ما تعلق بالمعاهدات التي تبرم بين الدول. فإذا كانت هناك معاهدة سلام بين أميرين مثلاً ودفعت الضرورة أحدهما إلى نكث المعاهدة، فإن الطريقة الأنسب لذلك هي أن يقوم الأمير الذي يريد أن يتملص من هذه المعاهدة بمهاجمة أحد حلفاء الأمير الأخر بذلك يتحطم هدف المعاهدة الذي هو في الأصل منع وقوع الحرب بينما الحرب في هذه الحالة محتومة[2].

من خلال ما سبق يتضح أن ماكيافيللي يفضّل أن يكون الأمير أو الحاكم جامعا لكل الصفات الحسنة من صدق وفاء، رحمة سخاء. ..الخ. لكن الأمير الذي يتحدث عنه ماكيافيللي يجد نفسه بين أمرين: إمّا أن يكون من الحكمة والذكاء اللذان يمكنانه من التكيف مع مقتضيات الواقع، فيسلك في سبيل الحفاظ على نفسه، وعلى دولته طرقا قد لا تتفق مع مبادئ الأخلاق والدين، لكنها تصبح وسيلة فعالة وضرورية، وإما أن يكون مآله السقوط والانهيار. وبالتالي ماكيافيللي لم يهاجم مبادئ الأخلاق، ولكنه لم يكتشف أي فائدة عند الربط بينها وبين مشكلات السياسة. فلقد علمته تجربته السياسية أنه لا وجود لأي لعبة سياسية لا تعتمد في لعبها على الغش والخداع والغدر[3]، لذلك ففضيلة خدمة المصلحة العامّة تدفع بالأمير إلى التخلي عن الصفات الأخلاقية، لأنه وبدون هذه الفضيلة ستكون الدولة مهددة بالانهيار بفعل ما هو متأصل في الجنس البشري من أنانية.

كثير هم الفلاسفة والمفكرون الذين تحدثوا عن الدولة، إلا أنه مع ماكيافيللي تصبح الدولة في أعلى الهرم حيث تصبح غاية الغايات، ولا قيمة تعلو فوق قيمتها ولا مكانة للأخلاق، ولا للدين إذا تعرضت الدولة للاهتزازات والاضطرابات. إيمانا من ماكيافيللي بأن الدولة هي الكيان الذي إذا تعرض للانهيار والفساد، فإن كل شيء سوف يضيع معه بما في ذلك الأخلاق والدين والعادات والتقاليد، وبالتالي لا سلطة تعلو فوق سلطة وقيمة الدولة عند ماكيافيللي، فالدولة أولا، وثانيا ً وأخيرًا.

---

[1] - المصدر نفسه، ص 108.
[2] - ماكيافيللي، المطارحات، مصدر سابق، ص 129-130.
[3] - ارنيست كاسيرر، مرجع سابق، ص 194.

▪ قائمة الكتب المعتمدة

▪ قائمة المصادر

1. ماكيافيللي، نيقولو، المطارحات، تر: خيري حماد، المكتبة التجارية للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، ط.1، 1962

2. الأمير، تر: عبد الرزاق عبيد، دار تلانتيفيت للنشر، الجزائر.

3. الأمير، تر: فاروق سعد، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط.12، 1982.

▪ قائمة المراجع

1. ارنيست كاسيرر، الأسطورة والدولة تر: أحمد حمدي محمود، مراجعة أحمد خاكي د.ط، المكتبة العربية، مصر، 1975.

2. ليو شتراوس، جوزيف كوربسي تاريخ الفلسفة السياسية من ثيوديكس حتى اسبينوزا الجزء 1، تر: محمود سيد أحمد، مراجعة، إمام عبد الفتاح، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005.

3. محمد عبد الستار نصار، دراسات في فلسفة الأخلاق، دار القلم، الكويتن د.ط، 1982.

4. محمود حمدى زقزوق، مقدمة في علم الأخلاق، ط.3، دار القلم، الكويت، 1963.

5. ستيفن ديلو، الفكر السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني، تر: ربيعة وهبة القاهرة، 1997.

6. فاروق سعد، تراث الفكر السياسي قبل الأمير وبعده، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 24، 2002.

7. ريمون بولان، الأخلاق والسياسة، تر: عادل العوّاط، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط.2، 1992.

8. شوفالي، جون جاك، تاريخ الفكر السياسي من المدينة الدولة إلى القومية، تر: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1985.